المحاضرة الخامسة :حضارة بلاد الرافدين

تاريخ – ديانة– فنون– فكر– علوم

أولا. نبذة مختصرة عن هذه الحضارة:

حضارة بلاد الرافدين هي حضارة كانت موجودة في أراضي العراق، وتتميّزُ بأنّها من الحضارات التي ظهرت بشكلٍ أصيل؛ أي تأسّست وشهدت الكثير من التطوّرات دون الاعتماد على أي حضارة أُخرى من الحضارات، حيث إنها وُجدت منذ عصور ما قبل التاريخ وتعد من أقدم الحضارات الإنسانية، وشكّلت الزراعة أهم المهن التي انتشرت بين سُكّانها، وساهم التفاعل الذي ظهر بين النّاس والطبيعة في تطوّر هذه الحضارة مع مرور الوقت أمّا اسم بلاد الرافدين أي بين الأنهار بهدف الإشارة إلى الأراضي الموجودة بين نهري دجلة والفرات.

وتذكر الروايات أنّ سفينة نوح عليه السلام قد رست في منطقة الكوفة وهي قريبة من بابل، وذلك بعد أن مات جميع البشر في حادثة الطوفان، ثمّ ظهر أول مجتمع بشري بعد هذه الحادثة في منطقة ما بين النهرين، والتي تعتبر منشأً لسلالة البشر والحضارات المتعاقبة على الأرض..

ثانيا. الموقع الجغرافي:

تقع حضارة بلاد الرافدين في الجنوب الغرب لقارة آسيا .وهي تقع حالياً تقع بالعراق، وتركيا، والجمهورية السورية؛ أي جميع المناطق التي تقع ما بين نهري الفرات ودجلة، وكلا هذين النهرين ينبعان من جبال أرمينيا الموجودة في تركيا، وتغذيهما عدّة روافد توجد في شرق البحر الأبيض المتوسّط وفي غرب قارّة آسيا (**منطقة الهلال الخصيب في العراق(مصطلح جغرافي أطلقه عالم الآثار الأمريكي جيمس هنري على مناطق الحوض من نهريّ دجلة والفرات، والجزء الساحلي من بلاد الشام)**) ويتوحّد النهران في

الجهة الجنوبية بشط العرب ويصبان في خليج العرب. ويكون مناخ هذه الحضارة شبه جاف ورطب غالباً كونها مناطق صحراوية، خاصة من الجهة الشمالية، وتتميّز بكثرة البحيرات والمستنقعات الطينية؛

ثالثا. بعض مظاهر الحضارة في مصر الفرعونية"

أ–الدين

إن العقيدة الدينية قديمة في وجودها قدم الإنسان نفسه، ولكن من الصعب تحديد البدايات لهذه العقيدة الدينية من حيث الزمان والمكان، ولكن يمكن القول إن الإيمان بالدين وجد في مناطق عديدة من العالم وبين أقدم الجماعات البشرية التي عثر عليها المؤرخون والأنثروبولوجيون في مواقع استيطانهم، وعلى مخلفاتهم التي لها علاقة بالدين والعقيدة الدينية.

إن ما يعرف عن ديانات سكان بلاد الرافدين في عصور ما قبل التأريخ قليلٌ جداً، ومعظم هذا القليل غير مؤكد لأن المعلومات تعتمد على المخلّفات المادية التي تركها إنسان الكهوف والملاجئ الجبلية والأكواخ التي اتخذها مسكناً له، وأهم تلك المخلّفات هي التماثيل والقبور والتعاويذ والرسوم والنقوش البارزة والآلات والأدوات وعظام الحيوانات. ولا يوجد وثائق مدوّنة عن الممارسات الدينية، لأن الكتابة لم تكن معروفة ولم تُختَرَع إلاّ في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

ارتبطت أركان حضارة بلاد الرافدين مع المعتقدات الدينيّة التي سادت في ذلك الوقت، وصارت جزءاً من الإنجازات الحضاريّة والنشاطات اليوميّة، وظهرت الكثير من المعبودات التي وصلت إلى عددٍ كبيرٍ في فترة القرن الثالث قبل الميلاد، ولكنها لم تتفق معاً في المكانة بل كانت لكلٍّ منها أهميةٌ خاصة بها، ويحكمها جميعاً آلهة أساسيّة تفوقها بجميع القدرات، كما سعت الشعوب في حضارة بلاد الرافدين خلال العديد من العصور المتعاقبة إلى تقليل عدد المعبودات؛ من خلال جمعها معاً من حيث التوافق في الخصائص أو المسؤوليّات أو التوقف عن عبادة مجموعة منها، وساهم هذا الشيء في تقليل عدد الآلهة بشكلٍ كبير.

ويمكن تقسيم الديانة عندهم إلى المعتقدات الدينية، واستخدام المعابد وعبادة الآلهة.

أ– **المعتقدات الدينية:** يمكن استقصاء هذه المعتقدات الدينية والقيم الأخلاقية لبلاد الرافدين من خلال نصوصٍ متنوعة تشمل: القصص والأساطير الملحمية، والطقوس والتراتيل، والصلوات والتعازيم الدينية، ومجاميع للأقوال المأثورة والأمثال الدارجة. من المعتقدات الدينية الموجودة عندهم النظر إلى الإنسان بأنّه من أنواع الكائنات التي تشمل قسمين الأوّل الجسد وهو حسيّ، والآخر الروح وهي غير مرئيّة. كما اعتقد سكان بلاد الرافدين أن آلهتهم لم تكن شيئاً في بدايتها أي إنها كانت عدماً، وإن من جراء هذا العدم خُلق إلهان أحدهما مذكر ويدعى (آبسو) (Apsu) وهو محيط بالمياه الحلوة المحدق بالأرض، والثاني مؤنث وتدعى (تيامة) (Tiamat) ومعناها البحر، وهذان الإلهان كانا الأصل لكل شيء موجود. وهذا ما نجده في مستهل أسطورة الخليقة:يوم لم تكن السماوات العلى––ولا الأرض من أسفل قد تسمّت باسمها – –من الأب الأول آبسو،––ومن أم الجميع، تيامة الهائجة––تجمعت المياه في مَجْمَعٍ واحد––يوم لم تكن لمنابتِ الأسلِ تخوم–ولا وقعت عين راءٍ على مجامع القصب–يوم أحد من الآلهة لم يكن بعد قد نودي باسمه– ولا حدد لواحد منها، مصيره––يومئذٍ كانت الآلهة.

ب– **استخدام المعابد:** انتشر بين النّاس استخدام المعابد التي عُرِفت باسم (بيت) في الأكادية، ومن الجدير بالذكر تشابه هذه الكلمة تماماً بمقابلها في اللغة العربيّة؛ حيث اعتبر المعبد بيتاً للآلهة وفقاً للاعتقاد الذي ساد قديماً، كما لم يصل التوحيد كعقيدةٍ إلى النضج الكامل آنذاك إلّا أنه ظهرت ميول حقيقيّة للتخلص من الشرك؛ من خلال تطبيق التفريد الدينيّ الذي يدعو إلى الإيمان بآلهة واحدة، ولكن دون تجاهل العبادة الخاصة بالآلهة الأخرى.

ج–**عبادة الآلهة:** استحدث سكان بلاد الرافدين آلهة رئيسة، وهي الآلهة التي عبدها السومريون، وعظّمتها أغلب الملاحم والأساطير السومرية والبابلية آنذاك، ومن أنواع الآلهة عندهم: الإله (آنو) (Anu) (إله السماء) والإله (إنليل) (Enlil) (إله الهواء) والإله (إنكي) (Enki) (إله الأرض والمياه العذبة) كان هؤلاء الآلهة يقتسمون العالم، ولكل من هؤلاء الآلهة طريقه الخاص في المدار الشمسي، ومساكنهم جميعاً في أعالي السماء.

ويبدو إن الخوف الذي كان يسيطر على العراقي القديم وهو يواجه قوى الطبيعة، ساهم في دفعه نحو ابتكار الآلهة وعبادته لها، ليجد فيها ملجأ يزيل عنه هذا الخوف، إذ إن ذهنية حضارة بلاد الرافدين كانت تعكس هذا الخوف والقلق، وإن كل هذا قاد به إلى إيجاد الآلهة لتكون تعبيراً عن قوى الطبيعة التي يخاف منها، وإن قلقه المتزايد نحو العالم الآخر قد زاد من هذا الخوف، إذ كان يرى إن الموت أمر مقرر ذلك)) لأن الآلهة منذ أن خلقت الإنسان, كانت قد جعلت الموت حظاً له، وإن الحياة بقيت بيد الآلهة هذه.

وكان من الطبيعي أن يكون الإنسان في بلاد الرافدين القديم متديناً، لأن الدين كان يقدم نفسه في حدود المستوى الذي كان عليه التطور المادي في بلاد الرافدين، إذ إنه مثّل آنذاك انعكاساً خيالياً داخل الوعي الاجتماعي لعلاقات الناس فيما بينهم بصفة عامة، وعلاقاتهم مع الطبيعة بصفة خاصة، فكان هذا الإنسان يعيش في حالة من الترابط مع الطبيعة، وبقي هذا الشعور يلازمه طوال الفترة التي حافظ فيها المجتمع على تماسكه الثقافي، وبقي هذا الشعور حياً بالرغم من تطور أحوال الحياة المدنية.

ب– اللغة

ظهرت عدّة لغات في بلاد الرّافدين؛ حيث ستخدم السكان رموزا وكلمات لتسيير أمورهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وممارسة طقوسهم، وكان من أبرز تلك اللغات:

1)اللغة السومريّة: تُعد اللغة السومرية من أقدم اللغات المستخدمة من قبل سكان سومر في جنوب بلاد الرافدين وقد دونت هذه اللغة بالخط المسماري على ألواح من الطين، وبداية ظهور هذه اللغة غير معروفة، لكن الباحثين يرجحون استخدامها من قبل سكان سومر منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد واستمرت هذه اللغة حتى نقراضت تدريجيا حوالي سنة 1800 ق.م إلا أنها بقيت كلغة طقوس وأدب حتى حوالي القرن الأول الميلادي، ومن أهمّ مميّزات اللغة السومريّة أنّها من اللغات الّتي تحتفظ بالأغراض الأدبيّة والاجتماعيّة أيضاً، وكانت مستخدمة في دور العبادة.

2)اللغة الأكديّة: تصنف اللغة الأكدية من اللغات السامية الشرقية التي كانت مستخدمة بشكل عام في الهلال الخصيب (وكانت بداية هذه اللغة حوالي الألفية الثالثة قبل الميلاد(4000ق.م) ودونت بالخط المسماري أيضا على ألواح الطين كما كانت هذه اللغة متداولة بين الأكديين والبابليين والأشوريين وبقيت سائدة حتى ظهور المسيحية.

لقد حصل تطور تكافلي ثقافي بين السومريين والأكديين خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، تضمن هذا التطور انتشارا واسعا للثنائية اللغوية أي كتابة لغتين في آن واحد، وقد تأثرت اللغة الأكدية باللغة السومرية وحصل العكس أيضا وكان هذا التأثير واضحا في جميع المجالات، من الاقتراض المعجمي واسع النطاق، إلى النحو، والصرف، وحتى التقارب الصوتي.

3)اللغة الآراميّة: تصنف أيضا من اللغات السامية الشرق أوسطية الواسعة النطاق، انطلقت هذه اللغة مع قيام الحضارة الأرامية في وسط سوريا حيث كانت تعرف باللغة الرسمية في بعض مناطق العالم القديم إلا أنها عرفت بغلة الحياة في منطقة الهلال الخصيب ويعود بداية كتابتها حوالي إلى القرن العاشر قبل الميلاد، أصبحت فيما بعد اللغة المسيطرة على منطقة الهلال الخصيب بداية القرن الخامس قبل الميلاد بعد هزيمة المملكة الأشورية على يد الأراميين.

كما تعد من اللغات المقدسة لأنها اللغة التي كان يتكلم بها السيد المسيح كما يُعتقد، وهي اللغة الرئيسية في التلمود

وقد تعلم الآراميون من الكنعانيين فن الكتابة الأبجدية وحاولوا استعمال اللغة الكنعانية في كتاباتهم، غير أنهم كشفوا عن ذواتهم باستعمالهم تعابير آرامية وسرعان ما تخلوا عن الكنعانية واستخدموا لغتهم الخاصة.

إن أقدم النصوص التي وصلتنا باللغة الآرامية ترقى إلى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد، وفيها يبدو التطور واضحاً من اللغة الكنعانية إلى اللغة الآرامية. استمرت اللغة الأرامية بشكل واسع النطاق في العراق حتى مجيء اللغة العربية إلا أنها لم تنقرض؛ حيث لا تزال بعض الطوائف في العراق يستعملونها فيما بينهم.

ج– الأدب والأساطير

يعد الأدب في طليعة المظاهر الحضارية التي جاءت تعبر عن الحياة ومعانيها وألوانها المختلفة حيث كان يمثل في نظر أغلب الباحثين المرآة الصادقة التي عكست الأفكار الأدبية التي كانت سائدة في تلك العصور الموغلة في القدم، ويعزى له أنه تناول مواضيع عديدة ومختلفة كانت تشغل بال الناس آنذاك ومن بين تلك المواضيع نظرته إلى خلق الكون وخلق الإنسان والحياة والموت وقضايا عديدة كانت تخص جانب الخير وأخرى كانت تخص جانب الشر .

إن ما قدمه العراقيين القدماء من إنجازات في هذا الجاني لا تقل أهمية عن إنجازاتهم في الجوانب الأخرى كالجانب الديني والجانب التشريعي، كونه كان مرتبطاً بالكتابة والتي ظهرت لأول مرة في عام 3200 ق.م قبل أن تبلغ مستواها المطلوب من النضوج اللغوي الكامل عند منتصف الألف الثاني قبل الميلاد

كان لظهور الكتابة الفضل الأكبر في تدوين ما يدور من أفكار في أذهان الناس في تلك العصور لاسيما الموروث الأدبي الذي كان يتداول شفاها بين عامة الناس، ولولا هذا الإنجاز وبالأحرى لولا العراقيين القدماء لما استطعنا التعرف على المخلفات الذهنية لذلك الإنسان .

لقد أعتاد الباحثين الغرب أن يعتبروا اليونان والرومان هم أول من ألف أو كتب الملاحم الشهيرة والأشعار بمختلف أغراضها إلا أن التنقيبات والتحريات الأثرية التي أجريت في مواقع العراق القديم قد أسفرت عن قدم وأصالة الأدب العراقي القديم لاسيما وأن النصوص المسمارية المكتشفة آنذاك قد أثبتت أن لبلاد الرافدين السبق في هذا المجال

امتاز الأدب العراقي القديم بمميزات عديدة كان من بينها:

1. يعد أدب بلاد الرافدين أقدم ما وصلنا من النتاج الأدبي للإنسان ويرقى تاريخ أقدم النصوص الأدبية المكتشفة إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ولابد إن المؤلفات التي وصلت إلينا مدونة كان قد تم تأليفها في أزمان أقدم من عهد تدوينها وقد تناقلها الأجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية

2. حافظ أدب بلاد الرافدين على صيغه الأصلية كما دون قبل أربعة آلاف سنة على رقم طينية ظلت محفوظة تحت الأتربة والأنقاض إلى آن له أن تنكشف ثانية وتترجم إلى لغات حديثة، لذا لم يتعرض كما تعرضت لآداب الشعوب الأخرى الى التزوير والتحوير.

3. يعد أدب بلاد الرافدين مرآة صادقة تعكس لنا أسس الحضارة العراقية القديمة واتجاهاتها وعقائدها وأحوال المجتمعات .

4. غلب على معظم النصوص الأدبية التي وصلت إلينا الطابع الأسطوري الشعري.

5. ترك الأدب العراقي القديم آثار واضحة في آداب الشعوب القديمة فقد كان للأدب صدى واضح في الآداب العبرانية والحيثية والمصرية والإيرانية نتيجة للاحتكاك المباشر بين بلاد الرافدين وعموم البلاد الشرق القديم .

6. لم يذكر أسماء المؤلفين من الأدباء والشعراء، وان ما ورد من أسماء في بعض النصوص الأدبية التي وصلت إلينا في الواقع أسماء النساخ أو جامعي الملحمة والأسطورة

في زمن الدولة البابلية كانت هناك مكتبات في معظم المدن والمعابد؛ مثل سومري قديم يقول: "الذي من شأنه التفوق في مدرسة الكتابة يجب أن يستيقظ مع الفجر"النساء مثل الرجال يتعلمن القراءة الكتابة،

هناك قدر كبير من الأدب البابلي قد ترجم من أصول سومرية، ولغة الدين والقانون استمرت طويلا حيث أنها اللغة القديمة المتراصة لسومر من مفردات وقواعد النحو، وترجمة بين السطور وغيرها جهزت

لاستخدام الطلبة، وكذلك التعليقات على النصوص القديمة وتفسيرات الكلمات والعبارات الغامضة. وكلمات اللغة المقطعية كانت كلها مرتبة ومسماة، وتوجد قوائم مفصلة منهم تم رسمها. وهناك العديد من الأعمال الأدبية البابلية المعروفة والمشهورة. ومن أشهر هذه الأعمال "ملحمة جلجامش"، والتي كتبت في اثني عشر كتابا، مترجمة عن الأصل السومري، ورتبت على أساس فلكي. وكل قسم يحتوي على قصة مغامرة واحدة في وظيفة جلجامش، والقصة كلها هي نتاج مركب، ومن المحتمل أن بعض القصص مضافة صناعيا على الشكل المركزي.

خلاصة: أهم مميزات هذه الحضارة:

ساهمت عدة شعوب في بناء حضارة بلاد الرافدين: تقع بلاد الرافدين شرق البحر الأبيض المتوسط على نهري دجلة والفرات، مما سهّل استقرار السكان وإقامة الأنشطة الزراعية، ويمكن تقسيم تاريخها الطويل إلى مرحلة ما قبل التاريخ ومرحلة التاريخ، ويفصل بينهما اختراع الكتابة (وثيقة3 ص:8). وتميزت هذه المنطقة بعدم الاستقرار السياسي وتعاقب عدة سلالات حاكمة مما سيؤدي إلى خلق تراث حضاري متنوع.

ساهمت الكتابة المسمارية في تطور التاريخ: تعتبر الكتابة المسمارية من أهم مظاهر حضارة بلاد الرافدين، وكانت عبارة عن رسوم تطورت عبر عشرين قرنا إلى رموز وكانت تستعمل لتسجيل الحسابات المالية وممتلكات الملك والكهان، ولتدوين الأساطير والأحداث التاريخية، إلا أن نقشها على لوحات طينية وصعوبة فك رموزها لم يسمح باستمرارها وانتشارها.

ساهم قانون حمورابي في التطور الحضاري: شهدت حضارة بلاد الرافدين ظهور عدة قوانين لتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويُعدّ قانون حمورابي البابلي من أهم التشريعات القديمة التي تساهم في تحقيق العدالة بين المواطنين، لقد ساهمت حضارة بلاد الرافدين في إغناء التراث الإنساني، ومازالت عدة آثار قائمة تدل على تنوع وأهمية تلك الحضارة.